بين الشعر والفلسفة

إن كلمة « فلسفة » التي وردت في عنوان هذا الموضوع لا يقصد فيها إلى الفلسفة التي قرأنا عنها في صفوف الفلسفة من المدارس ، أعني أنها ليست الفلسفة التي أفنى عمره فيها سقراط وأفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا .

هذه الفلسفة العلمية ، إن صح التعبير ، أو المدرسية ، ذات القواعد والأصول ، لست بسبيل البحث فيها ، وإنما أقصد في كلمة « فلسفة » إلى هذه الأفكار التي تعرض للشعراء الموهوبين ، الشعراء العباقرة في سبحات خيالهم ، وتحليق أرواحهم وسمو نظراتهم التي تصل بهم إلى أجواء لا نعرفها إلا بأقوالهم ، وسماوات لا تخطر على بالنا لولا تلك الصور الشعرية الأخاذة التي تقربها من أيدينا حتى نكاد نلمسها لمس اليد ، هذه الأفكار الشعرية ، التي تتناول مصير الإنسان ونهاية البشر وخاتمة الخليقة ، هذه الأمور التي لا تفارق الإنسان مدة عمره ، هي التي أقصد إليها في هذا الموضوع ، فالبحث إذن يتناول ما يجول بخاطر الشعراء من خوف وهلع للنهاية التي تنتظر كل إنسان في هذا الوجود ، أولئك الشعراء الذين يتحدثون عن كل أمر من أمور الحياة حديثاً له لغته الخاصة وتعبيراته اللماحة التي لا يحسنها إلا الذين أوتوا ملكة البيان وعرفوا طواعية الفكر وذلاقة اللسان .

والفرق بين الشاعر والفيلسوف ؛ أن الشاعر يتحدث بلغة الإحساس المرهف والشعور المتوفر في حين أن الفيلسوف لا يحدثك إلا بلغة العقل والفكر المحض ، كما يقول أصحابنا الفلاسفة ، هـــذا يتحدث بشعوره ، وذاك يتحدث بعقله ، وشتان بين الطريقين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن هذا العقل وهذا الإحساس ، ولنطلق عليه ، القلب ، لابد أن يلتقيا أحياناً ، فإذا التقيا غلبت الموهبة الأصيلة ، فمن كانت فلسفته أشد ظهوراً ، كان كلامه فلسفة ، ومن كانت شاعريته أقوى أثراً ، كان حديثه شعراً ، وهكذا نجد أنه لا بد للفلسفة من بعض الشعر ، كما لا بد في الشعر من قليل من الفلسفة ، على أن تكون هذه الفلسفة غير ظاهرة في الشعر ظهوراً يقلب الشعور إلى فكر ، ويعطينا بدل اللذة والاستمتاع تفكيراً جافاً ، صرفاً ، هو التفكير الفلسفي .

في الشعر تكون الأفكار الفلسفية أشبه بالملح ، وفي الفلسفة يكون الشعر أقرب إلى الزينة والبهرج ، الشعر يخفف من جفاف الفلسفة ، والفلسفة تزيد الشعر عمقاً ورجاحة واطمئناناً ، بشرط أن لا تزيد عن مقدارها المقبول فهي ، في لغة الصيادلة والأطباء ، أشبه بالمقادير الطبية المفيدة النافعة ، حتى إذا زادت عن مقدارها المحدد أوشكت أن تكون سماً قاتلا .

ولقد أحس الشعراء القدامى هذه الحقائق ، ونظروا فيها ، وأبدوا آراءهم حولها ، وكان البحتري سبَّاقاً إلى ذلك ، لأن البحتري شاعر محترف ، وأعني بالاحتراف هنا أنه كان شاعراً ، ولم يكن يستطيع أن يكون إلا شاعراً ، إن الشعر عند هذا الشاعر مهنة واختصاص ، فهو يأكل ويمشي ويتحدث ويكتب ويغني ، إنه يفعل كل ذلك بصفته شاعراً ولا يفعل شيئاً في حياته فيما لو فارقته هذه الصفة التي كونت شخصيته وتناولت كل وجوده .

يقول البحتري في حديثه عن الشعر :

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـــطق ما نوعـــه وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

فالفلسفة التي أشرنا إليها آنفاً وأعني الفلسفة التي يجوز لها أن تمتزج بالشعر وأن تبدو على الكلام الشعري هي فلسفة أقرب إلى الخيال وأشبه بالشعر نفسه ، وليست منطقاً مبنياً على مقدمات ونتائج ، أو هي ليست حقيقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رياضية تعتمد على أن اثنين واثنين تساوى أربعة ، أو هي ليست حقيقة كيميائية ، تجعل من الماء ذرة من الاوكسجين وذرتين من مولد الماء ، كل هذه الحقائق العلمية أو الفلسفية لا تدخل في باب الشعر ولا تلجه إلا قسراً ، فاذا ولجته كانت غريبة عنه ، شاذة في جوه ، مستكرهة في عالمه ودنياه . لذلك تذكر البحتري امرأ القيس ، وهو يمثل الشاعر الملهم في اللسان العربي . الشاعر الذي عاش للشعر ومات في سبيل حقيقة شعرية خالدة هي الفكرة التي دعاه اليها قلبه في حين أن عقله كان ينهاه عنها ويهيب به الى تركها ؛ لقد دعاه قلبه الجريح الى الأخذ بثأر أبيه ، ولم يكن في سعيه هذا أي أثر للمنطق والعقل بعد أن خذله الناس وتركوه وحده في دنيا العرب حتى لجأ الى دنيا الروم حيث مات غريباً مشرداً ، لم يكن امرؤ القيس إذن يتكلم بلغة المنطق ، ولم يبحث في حياته نوع هذا المنطق وأسبابه ومسبباته ، بل ترك لقلبه العنان ولنفسه الحرية المطلقة كما ترك خياله يهيم في أجواء الشعر أنى شاء وكيف أراد . هذه هي الفكرة الشعرية التي دعا اليها البحتري الشاعر ، وهو بعد أن ضرب المثل بامرئ القيس إمام الشعراء وحامل لوائهم في النار ، عرّف الشعر تعريفاً ما أظن أن الأدب العربي ، أو الأدب العالمي قد وصلا الى تعريف يفوقه جمالاً وقوةً واختصاراً واصابةً ، يقول البحتري :

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

إن كلمة « لمح » لتضم بين حروفها الثلاثة عالماً كاملاً من الشعر وأعظم منها هذه الجملة التي وردت بعدها في قول الشاعر « تكفي إشارته » فما ينبغي للّمح أن يطول أمده ، وأن يبهر العين ويعشي البصر حتى يعرفه الناظر اليه ، إن ومضةً واحدةً من ومضاته تكفي لمعرفته وإدراكه ادراكاً يغني عن طول المدة والبقاء والاستمرار ، وهذه « الومضة » هي « الإشارة » الكافية التي تغني في الفهم عن كل ما عداهـــا ، ان قارئ الشعر المرهف يستغني بهذه الإشارة عن كل كلام آخر ، ولعل في الشطر الثاني من هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البيت العجيب توضيحاً لما قلت ، فان الشعر الذي هو لمح تكفي الإشارة منه ، ليس بالهذر ، ولا يمكن أن يكون خطبةً طويلةً تتكرر عباراتها وتعاد جملها بحيث تصير نثراً ، أو كتابةً لا شعر فيها ولا شعور وإنما هي أفكار مبثوثة قد أحكم الرابطة بينها منطق له مقدمات وله نتائج .

ولو تعمقنا في النظر بهذين البيتين اللذين مرّا بك لأدركنا أن البحتري إنما قصد إلى إقصاء الشعر عن الفلسفة ، وأنه سعى بكل شعوره إلى الفصل بين الفلسفة والشعر ، لأن لكل منهما عالماً خاصاً وجواً يعيش فيه .

ولكن البحتري كما ترون قد نأى في رأيه هذا عن الفلسفة كلها . هذه الفلسفة التي جعل عنوانها « المنطق » وهو تعبير قديم كما ترون ، فربما كان المنطق في عهد من العهود السابقة ممثلاً للفلسفة كلها ، ويبدو أن الفلسفة المبنية على المنطق ، هي التي أراد الشاعر الهروب منها ، وله الحق في هذا ، فإن المنطق لا يمكن أن يختلط بالشعر ، فالأول بني على القيود والحقائق التي لا تقبل الشك في حين أن الشعر بني على الحرية وهو حليف الخيال الذي لا يعرف حداً غير حد الشعور والإحساس ، أما ألوان الفكر التي دخلت في عالم الفلسفة بعد العصور الأخيرة ، وبعد أن قام الفلاسفة بوضع التصنيفات الكثيرة ، إن هذه الألوان لا يمكن أن تنفى كلها عن الشعر ولا يجوز للشعر أن يضيق بها ذرعاً ما دامت تستطيع أن تعيش في جوه ، بشرط أن تتخذ لها شكلاً يقرب من الشعر .

من هذه الألوان بحث ما وراء الطبيعة في بعض نواحيه الغيبية ، كالفلسفة التي تتناول نهاية الإنسان والبعث والنشور وخلود الروح وما شاكل هذه الأفكار التي شغلت الفلاسفة العرب كابن سينا وشغلت الفلاسفة الأجانب من عهد يونان حتى أيامنا هذه ، إن هذه الأفكار قد اختلطت بالشعر وكانت لوناً شعرياً مستقلاً أعجب به أناس كثيرون حتى لقد عدوا الشعر المجرد عن هذه الأفكار شعراً بسيطاً قليل المادة ، أو قليل الدسم إذا أردت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فنحن إذن نجد أنفسنا أمام لونين من الشعر ، اللون الأول ، هو الشعر الصافي أو الشعر المحض ـ إذا جازت هذه التسمية ـ وهو الشعر الذي يعتمـــد على اللفظ الموسيقي والعبارات المنغومة والصور الشعرية التي تأتي الشاعر عفو البديهة وعن طريق الإلهام ، الذي يشكل العنصر الأساسي للشعر والذي يتفاوت الشعراء حسب ما يملكون منه ، هذا اللون من الشعر بعيد عن الأفكار الفلسفية والآراء التي تعتمد على العقل أكثر مما تعتمـــد على الوحي والإلهام ، ومن هذا الصنف من الشعراء البحتري ، والعباس ابن الأحنف ومسلم بن الوليد ، وعمر بن أبي ربيعة وشوقي والشعراء العذريون الذين قضوا حياتهم يبكون ويشتكون ، وينظمون عواطفهم القلبية التي لا تعرف المنطق ولا تؤمن به ولا تفكر فيه

أما اللون الثاني فهو الشعر الذي اتسع أفقه ، وانفسحت رقعته ، وانفرج بابه حتى دخلت منه الفلسفة ، التي امتزجت بالشعور والخيـــال والنغم فأصبحت جزءاً من الشعر ، بحيث يرى القارىء في هذا الشعر المتعة واللذة إلى جانب الدسم الفكري الذي يملأ الإنسان لذة وفهما ، ويقوم على رأس هذا الصنف من الشعراء العرب أبو الطيب المتنبي ، ويأتي بعده أبو نواس وبشار .

ولو أخذنا العلم الفرد من بين هؤلاء ، وأعني أبا الطيب ، لوجدنا عنده شعراً عجباً ، لقد جاء المتنبي إلى هذه الدنيا شاعراً كبيراً ، وكأن هذا الشاعر الكبير لم يعرف عهداً يسمى الطفولة ، إلا إذا كان شعره الطفل قد عدت عليه يد الزمن فذهبت به وأضاعته من بين أيدينا ، وإلا فإن الأبيات التي بقيت لدينا من طفولة هذا الشاعر لا تبعد كثيراً عن شعر الشعراء الكبار بل هي لا تختلف اختلافاً بيناً عن شعر المتنبي ذاته حـــين بلغ أوجه ووصل إلى القمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يقول مؤرخو الشاعر :

ومر في صباه برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يُعَجِّبان الناس من كبره فقال :

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا سريع العطب

رماه الكناني والعامري وتلاّه للوجه فعل العرب (١)

كلا الرجلين أتّلا قتله فأيكما غلّ حر السلب (٢)

وأيكما كان من خلفه فان به عضة في الذنب

هذا الشعر القوي ، وهذا الشعر الجارح ، وهذا الأسلوب العربي الدال على متانة وعلى جزالة أصيلتين ، هـذا كله من فعل صبي لم يبلغ بعد طور الشباب ـ وليس يخفى ما في الشطرة الأخيرة من إضحاك وغمز وسخر ، وهذا التساؤل الذي سبق ذلك في الشطرة الأولى يدل على نضج في الملكة الشعرية وعلى تمكن من اللغة والعروض ، وعلى طواعية في الخيال والاستيحاء الشعري .

ولو تركنا هذه الأبيات التي لم يَنْحُ المتنبي فيها نحو الحكمة ، أو الفلسفة الشعرية كما أسميناها ، واستمعنا إليه وهو يمدح في صباه « محمداً بن معن » في قصيدته التي يقول في مطلعها :

أرق على أرق ومثلي يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

لعجبنا من قوله :

أبني أبينا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينعق

نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

---

(١) تلاّه : قتلاه .

(٢) أتّلا : تولى القتل وباشره ، غلّ : خان ، أي اشتركا في قتله ثم خان أحدهما الآخر في سلب أشياء القتيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

انه يذكر الحكمة الخالدة في الحياة ويبحث القضية الكبرى وهي الموت وهو بعد صبي ، فماذا أبقى لأيام الشباب ، وماذا ادخر هذا الشاعر العجيب ، لأيام الكهولة والشيخوخة ، حين تبلغ الملكات الإنسانية كمالها وتصل إلى غايتها من النضج والاستواء .

فالنظرة نظرة فلسفية تشير إلى أن غاية العيش العناء . وان نتيجة الحياة إلى الموت فالزوال ، ولو كتبت هذه الفكرة نثراً لاستطعت أن تصل إلى المعنى المقصود من وراء الكلمات ، ولكنك حين تنثرها ، تفقد هذا الرنين وهذا النغم وهذا الجرس الذي يضفي على الكلمات ثوباً آخر من الزينة والأناقة لتغني الفكرة غناء بدل أن تقرأها قراءة جافة لا طرب فيها ولا نشوة ، ذلك هو الفرق الكبير والبون الشاسع بين أن تقول الكلمة نثراً وأن تنظمها شعراً ، ولا أنسى التشبيه الرائع الذي حفظناه عن بول فاليري الذي شبه النثر بالمشي العادي كما شبه الشعر بالرقص الموقع المنغوم .

المتنبي إذن يقف وحده على رأس هذا الصنف من الشعراء ، شعراء الفكر والنغم ، شعراء الفلسفة وفلاسفة الشعراء ، لقد أتوا بالفلسفة فحملوها خفيفة على الفكر ، لطيفة على السمع والذوق ، بأن كسوها الثوب الشعري البراق فصارت طعاماً لا صعوبة في الوصول إليه .

وليس أبو نواس بالمنكور في هذا الباب ، لقد نظر في أخريات أيامه نظرات فلسفية صائبة ما تزال حتى الآن مثلاً يحتذى ونموذجاً كاملاً للشعر الفلسفي :

سبحان من خلق الخلق من ضعيف مهين

يسوقه من قرار الى قرار مكين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحـــول شيئاً فشيئاً في الحجب دون العيون
حتى استوت حركات مخلوقة من سكون

فالعبقرية الشعرية هنا تتجلى في أن الشاعر قد سلط إلهامه وشاعريته على حقيقة علمية هي في أصلها أقرب إلى علم الطب أو علم وظائف الأعضاء أو علم الأجنة ، فغير من ثوبها العلمي الجاف وجعل لها ثوباً شعرياً شفافاً رقراقا ، وانظر إلى هذا التعبير الشعري الذي بلغ أعلى درجات السمو في قوله « مخلوق من سكون » فالحركة تخلق من السكون ، وان العلم نفسه والفلسفة ليعجزان عن التعبير عن هـذه الحقيقة تعبيراً آخذاً كهذا التعبير الذي يهفو له القلب وتستجيب النفس . لقد عبر الشاعر عن هذه الفكرة العلمية بطريقة شعرية سهلة على القراءة ، حلوة في الحفظ والفهم والإدراك ، واختصر قصة الحياة الإنسانية في أبيات قليلة العدد ، كانت كلها وحياً وإلهاما .

أما بشار فان ملكته البيانية تفوق حدّ الروعة ، وخاصة في قصيدته البائية واليمية ، وان أبياته في الشورى لتعطيك دستوراً للحياة الاجتماعية ، وقانوناً تسير عليه فلا تخطىء أبداً ولا يصيبك من ورائه إلا التوفيق .

ولكن المتنبي يظل زعيم هـــذا الصنف من الشعراء المتفلسفين ، الذين فلسفوا الحياة بكلام شعري جنبوه جفاف العلم وحموه من خشنة الفلسفة .

لقد نظر المتنبي في شؤون الحياة نظرة أدرك بها ما وراء مظهرها من أمور خفية ومعان مستورة فوصف ما رآه للناس ، وجعل من عقله الشاعر مصنعاً لدساتير الحياة والقواعد الاجتماعية بحيث أنك لو أخذت هذه الدساتير الشعرية فرتبتها الواحد إلى جوار الآخر لكان لك من ذلك نظـــام موضح مفصل تسير عليه فتصل إلى نهاية عيشك دون أن تجد في كل ذلك خطأ أو انحرافاً عن الحقيقة الخالدة ، وهل يمكن أن يقال غير هذا القول في مثل هذه الحقائق :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد
إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقى حتى تكون ضواريا

ولقد اشتط نفر من النقاد ، فجعلوا للمتنبي فلسفة خاصة في الحياة . وقرنوا هذه الفلسفة بفلسفة دارون « إرادة الحياة وحفظ النوع » وفلسفة « نيتشه » « إرادة القوة » وكان العقاد أبرز من تحدث عن المتنبي وفلسفته ، وقد زعم أن شاعرنا قد وفق بين الفيلسوفين الانكليزي والألماني فأقر فكرة « إرادة الحياة » كما أقر فكرة « إرادة القوة » وذلك في قوله :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
وحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورثه الحربا

فالحياة حبيبة إلى نفس الشجاع وهذه الفكرة تدخل في باب « إرادة الحياة » ، ولكن الشجاع لا يحب إلا الحياة المثالية ، حياة الجاه والجبروت والتسلط والقوة وهذا ما يمكن أن يعزى إلى إرادة القوة ، لكن العقاد كان معجباً بالمتنبي ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وأرى أن المتنبي على جلالة قدره لم تخطر على باله هاتان الإرادتان — إرادة الحياة وإرادة القوة — وكل ما أراد قوله هو أن الإنسان أناني لا يحب إلا نفسه ، وان طريقة هذا الحب تختلف بين إنسان وآخر . لقد قالها المتنبي بكل بساطة فكان قوله أقرب إلى النفس وألصق بالقلب ، لأنه شاعر ولأن الشعر يضفي على الأفكار ثوباً خاصاً لا تجود بمثله الفلسفة ولا يعرفه العلم . والذي صنعه المتنبي ليس فلسفة بالمعنى العلمي وإنما هو شعر امتدت يده إلى الآراء الفلسفية فأخضعها لقانونه وسيطر عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولربما خطر على البال شاعر آخر من هذه الزمرة وقد رأينا أن لا نحشره في جماعة معينة لأنه هو زمرة وحده ، هذا الشاعر هو أبو العلاء المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، وأبو العلاء كما نرى لم يكن شاعر الفلاسفة ، لأنه حين أراد أن يكون فيلسوفاً أضاع الشعر ، وحين حاول أن يصبح شاعراً أضاع الفلسفة وهذه الفكرة تعود بنا إلى أول حديثنا عن العلاقة بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة التي تريد أن تعيش مع الشعر في جو واحد وفي إناء واحد ، يجب أن تأخذ شكل الشعر وأن تلبس لبوسه ، وأن تغير من طبيعتها ، حتى تسيغها النفوس مع ما تسيغ من الشعر ، أما أن تبقى الفلسفة منعزلة عن الشعر في البيت الواحد أو في القصيدة الواحدة ، دون انصهار في كيان واحد ، فإن ذلك مما يجعل هذا البيت فكرة فلسفية أقرب إلى النثر ، على ما فيها من وزن ومن قافية ، لأن الشعر شيء آخر ينضم إلى الوزن والقافية ، وهذا الشيء هو روح الشعر ، وإلا فما الفرق بين أبيات ابن مالك وشعر البحتري فيما لو اشترطنا الوزن والقافية وحدهما ، وأبو العلاء في أكثر شعره قد طغت فكرته على شاعريته ، وجنف عقله على موسيقاه . وتعدى رأيه حدود خياله ، فخرج شعره وهو أقرب إلى مجموعة من الآراء العقلية والفلسفية استقر وراءها الشعر حتى لا يظهر له أثر .

لقد نظم أبو العلاء الشعر في موضوعات فقهية واجتماعية وفلسفية ، ولكن هذا الشعر كان خلوا من العاطفة الشعرية التي يتحدث الشاعر فيها عن حبه وأحلامه وآماله وأشجانه ، ولا يمنع رأينا هذا في أبي العلاء أن نجد له شعراً في شبابه الباكر قد مُليء شعوراً وعاطفة ، بل ان له من هذا اللون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قصيدة واحدة قد تعدل في رأي الكثيرين ديواناً كاملاً من الشعر العالي ، تلك قصيدته الرائعة :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي

فالقصيدة ليس فيها خيال شعري رفيع ، ولا صور أخاذة ، ولكن فيها أسلوباً عالياً وفكرة قريبة إلى القلب والنفس ، وحزناً ناعماً يشعرك بحزن الشاعر ويأسه من هذه الحياة التي تتخطف الأصحاب وتستأثر بالأعزاء واحداً بعد الآخر دون شفقة ولا رحمة .

ولقد مر بمالك أيضاً شعراء الصوفية من مثل محي الدين بن عربي والحلاج والسهروردي وغير هؤلاء كثير والذي أعتقده في هؤلاء أن الشعر عندهم لا يحرك القلب وإنما يحرك العقل ، والقلب هو مصدر الشعر والشعور في كل فن . وابن الفارض مثلاً قد غلب عليه الشعر في حين أن محي الدين قد غلبت عليه الفلسفة والتشريع والتفسير وغير هذه الأمور التي كانت تشغل ذهنه وتملأ عليه حياته ، وما أبدع قول ابن الفارض :

خفف السير وائتد يا حادي إنما أنت سائر بفؤادي

فالصورة بديعة رائعة وليس من الفلسفة في شيء أن يتخيل ابن الفارض الحادي وجماله سائرة في فؤاده لكثرة ما أحزنه هذا السير الذي أبعد عنه أحباب قلبه ، وانظر إلى قوله أيضاً يتغزل :

كل من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكل من في حماكا

وإن محاولة إقناع الحبيب بهذه الطريقة الحنون لشيء لا يمكن أن يأتي به إلا الشعر ولكن ابن الفارض يضيع شاعريته حين يتحدث إليك عن الناسوت واللاهوت ومع هذا فابن الفارض قد غلب عليه الشعر ، وأن التصوف عنده كان شيئاً عارضاً أو كان أشبه بالذهول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بقي أن أتحدث عن شاعر آخر ، شاعر لم يرزقه القدر شهرة ولم يعرفه إلا القلائل من قراء الأدب والمطلعين على الآثار العربية في الشعر النابه ، هذا الشاعر الكبير هو : الحسين بن عبد الله البغدادي ، ولقد وُلد ببغداد ونشأ فيها وتوفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وتحدث عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال : كان متميزاً بالحكمة والفلسفة ، خبيرا بصناعة الطب ، أديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً ، ثم يعد تلامذته وأساتذته على طريقة هـــذا المؤرخ ، والشيء المهم أن هذا الشاعر قد اختلط بعض شعره بشعر ابن سينا الرئيس ، إن جاز لنا أن نسمي ما نظمه ابن سينا شعراً ، فهو ولا شك ، نظم ، ولا تزد ، أعني أنه كلام تضمن حقائق علمية لم يتناولها الشعر ولم يترك الإلهام عليها أي أثر من آثاره ، ومن شعر الحسين البغدادي قصيدة رائية نسبت لابن سينا وفيها يتساءل الشاعر تساؤلاً جديداً في الشعر العربي ويحاول دراسة « الفلك » واستكناه الأقدار وما تضمره من خير أو شر ، ومع هذا فهي برغم جودة نظمها واتساق سبكها أقرب إلى العلم والفلسفة منها إلى الشعر ، لقد طغت الحقيقة على الخيال السمح فأساءت إلى شاعرية هذه القصيدة :

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهـــار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار

والبيت الأخير يذكرنا بهذه الأقمار الاصطناعية التي كشفت لنا عن عوالم جديدة ، وكأنه يتساءل جاداً عن منطقة الجاذبية الأرضية وعن المناطق التي تليها ، فهناك فضاء خلف هذا الفضاء ، وهذا ما أدى إلى معرفته العلم الحديث ، ثم ينتقل الشاعر إلى قضية أخرى هي قضية الأرواح التي ترفع إلى مكان آخر غير هذه الأرض حين يدرك الجسد الموت ، هل هي خالدة أم تموت كما يموت الجسد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعندك ، ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار

ثم ينتقل إلى وصف الفلك وما يحتويه من مجرّة وشمس ونجوم وهلال فيقول :

وموج ذي المجرة أم فرند على لجج الذراع لها مدار
وفيك الشمس رافعة شعاعا بأجنحة قوادمها قصار
وطوق للنجوم إذا تبدى هلالك أم يد فيها سوار
وأولاد نجومك أم حباب تؤلف بينه لجج غزار
وتنشر في الفضا ليلاً وتطوى نهاراً مثلما يطوى الإزار

ثم يأخذ صاحبنا بالتساؤل تساؤلاً يخرجه عن التقية ويضعه في مصاف أولئك الذين أثرت فيهم الفلسفة حتى زندقتهم ، فهو يتحدث عن آدم وهبوطه من الجنة بسبب أكلته المشؤومة فيقول :

لقد بلغ العدو بنا مناه وحل بآدم وبنا الصغار
وتهنا خائبين كقوم موسى ولا عجل أضلّ ولا خوار
فيا لك أكلة ما زال منها علينا نقمة وعليه عار

ثم يرثي لحال البشر فيقول :

نعاقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر البلايا والرزايا وبعد فالوعيد لنا انتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أخرجه الوجار

ثم يبلغ المرحلة الأخيرة من ضيق الصدر والإحساس بالظلم والعسف فيقول :

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار
وكان وجودنا خيراً لو انّا نخير قبله أو نستشار
أهذا الداء ليس له دواء وهذا الكسر ليس له انجبار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والقصيدة كلها من هذا النمط الرفيع في النظم والسبك ، وليس فيها ما يعاب إلا تعاقب الأفكار تعاقباً يتعب القارىء ، والعهد بالشعر أن يترك الخيال للمستمع ، ليتغنى ويريح باله (١) .

فإذا تركت هذه القصيدة التي طغت عليها الفلسفة والفكرة العلمية رغم ما فيها من شعر وشعور وانتقلت إلى قصيدة أخرى للشاعر ، أعجبت بغنائه الحزين وذكرياته الجميلة عن قرية « كوثا » العراقية ومما يلفت النظر حقاً هذا البحر الجميل وهذه القوافي الموسيقية الممتعة ، يقول الشاعر :

بنا إلى الدير من (كوثا) صبابات ... فلا تلمني فما تغني الملامات
لا تبعدن وإن طال الزمان بها ... أيام لهو عهدناها وليلات
فكم قضينا لبانات الشباب بها ... غنماً وكم بقيت عندي لبانات
ما مكنت دولة الأيام مقبلة ... فانعم ولذ فإن العيش تارات
قبل ارتجاع الليالي فهي عارية ... وإنما منح الدنيا غرامات

ثم ينتقل إلى الخمرة وهو يرى فيها سلوة المهموم وراحة الحزين الأسيف ، وهو يقرر أن الدنيا دار شقاء لا يمكن أن تقطع أوقاتها إلا باللهو والراح :

بم التعلل لولا الراح في زمن ... أحياؤه في سبات الهم أموات
بدت تحبي فقابلنا تحيتها ... وقد عراها لخوف المزج روعات
مدت أشعة برق من أبارقها ... على مقابلها منها شعاعات
فلاح في ساق ساقيها خلاخل من ... تبر وفي أوجه الندمان شارات
قد وقع الصفو سطراً من فواقعها ... لا فارقت شارب الراح المسرات

ولكن شاعرنا هذا يظل متماسكاً ، يضيق صدره حيناً فينفس عنه بأبيات يضمنها تساؤله ودهشته واستغرابه البقاء في هذا الوجود الذي لم يدرك

(١) هذه القصيدة تقع في / ٤٩ / بيتاً وقد نشرت في الصفحة / ٢٤ / من الجزء العاشر من معجم الأدباء لياقوت مطبوعات دار المأمون المصرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كنهه ، وهذا التساؤل في حد ذاته فلسفة كله ، ولكن الشاعر ينقلب إلى شاعر كبير حين يموت أخوه فتثور العاطفة الجياشة وتتحرك الأفكار المتشائمة الفلسفة في ضميره وتتحد هذه العناصر النفسية الشعرية كلها لتخرج قصيدة ما أظنك تلقى الكثير من مثلها في الشعر العربي كله ، يقول :

غاية الحزن والسرور انقضاء ما لحي من بعد ميت بقاء
لا لبيد (بأربد) مات حزناً وسلت صخراً الفتى ، الخنساء
مثل ما في التراب يبلى الفتى فالـ ـحزن يبلى من بعده والبكاء
غير أن الأموات زالوا وأبقوا غصصاً لا يسيغها إلا حياء

تلك قصة الإنسانية المعذبة ، أعزاء يموتون وأحباب يذهبون ، ويبقى الهم معلقاً بقلوب الأحياء فتسوء حياتهم ويبكون كلما ذكروا أولئك الذين غالتهم يد المنون ، وهذه آراء تشبه ما قاله ديك الجن بعد موت حبيبته :

لو كان يدري الميت ماذا بعده للحيّ منه بكى له في قبره

ويتم شاعرنا البغدادي حديثه الحزين فيقول :

نتمنى وفي المنى قصر العمر فنغـدو بما نسر نساء
صحة المرء للسقام طريق وطريق العناء هذا البقاء
بالذي نغتذي نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
ما لقينا من غدر دنيا فلا كانت ولا كان أخذها والعطاء
راجع جودها عليها فمنها يهب الصبح يسترد المساء
ليت شعري حلماً تمر بنا الأيام أم ليس تعقـل الأشياء

إنه يتحدث عن المشاكل الإنسانية كلها ، يتحدث عن الأماني الذاهبات والعلل التي تصيب الإنسان وهذا القدر الذي نلقاه من دنيانا الغرور وهذا الكرم الذي لا نجد وراءه غير الحرمان لأنه كرم كاذب ، ثم يتساءل أخيراً تساؤل من ضاع عقله وذهب لبه ، أهذه الحياة حلم أم نحن لا ندرك ما يمر بنا من أشياء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وينتقل بعد ذلك إلى لوم الوالدين ، فهما سبب وجوده في كون كله عذاب بعذاب .

قبح الله لذة لشقانا نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـــــر فايجادنا علينا بلاء

والبيت الأخير اعتراض صريح على الوجود في هذه الدنيا وهو الاعتراض الذي أقض مضجع الفلاسفة من أصحاب التشاؤم والسخر ، وهو الذي حير الشعراء والبلغاء .

ثم يختصر لك الحياة كلها في هذا البيت الرائع :

انما الناس قادم اثر ماض بدء قوم للآخرين انتهاء

هذا شعر دخلت عليه الفلسفة بعد استئذان ، فانصهرت به وعاشت في ظله ، فإذا قرأت هذا الشعر الرائع أحسست بنشوة الفكرة العميقة ولمست أثر العقل المرهف الفنان ، فاذا بلغ الشعر هذه المرحلة من السموّ ، كان شعراً عالياً تنحني أمامه الرقاب .

أحمد الجندي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net